**الفينومينولوجيا بما هي ضد-المنهج أو ميتا-المنهج.**

لم يسعى " هوسرل**"]1859-1938 [ Husserl** إلى إقامة مذهبا "فلسفيا". ولا إلى تأسيس مدرسة للتفكير، حيث يكون رئيسها، ولم يُمْلِ، أو يفرض عقيدة أو إعتقادًا فلسفيًا على مريديه، وإنما كان خلاف ذلك تماما. فلقد قام بفتح الطريق نحو بناء فكر منفتح على التساؤل. وأسس في الأصل حركة فكرية تمكن الآخرين من التواصل، والانخراط بحرية بداخلها من دون "دوغمائيات"، ذلك لأن نجاح الفكر ارتبط لدى "هوسرل" بمدى قدرته على الإدراك، أو الفهم العلمي الذي قد يعكسه العمل الفلسفي باعتباره عمل فريق بحث. وتكمن تحديدًا أصالة الطريق الذي قام هوسرل بشقه في مدى قدرته على ترسيخ تصور جديد لمفهوم الوعي. المفهوم الذي أحدث من خلاله قطعًا مع الصور المجردة، والعقلانية التي ميزت الفلسفات التقليدية.

من هذا المنطلق بإمكاننا القول أن "الفينومينولوجيا" **phénoménologie**" تحددت انطلاقا من العبارة الفاتحة:" العودة إلى الأشياء- عينها" " **Retour aux choses-memes".** العبارة التي جعل منها هوسرل خيطه الهادي نحو إقامة بحوثه الأساسية، ويجب الإشارة أن الأشياء التي تتحدث عنها العبارة، والتي كانت موضع سؤال، لم تكن أبدًا حقائق واقعية، أي متواجدة بالخارج، خارج الذات. وإنما هي معيشات، بإمكاننا أن ننجز حولها تحليلاً معمقًا. لكن ما هي المنطلقات الأساسية التي مكنت الفينومينولوجيا من الظهور؟ وكيف تمكنت الفينومينولوجيا نفسها من التموقع؟ بالمقارنة مع التاريخ الطويل للفلسفة، أي منذ اللحظة الإغريقية؟ وهل ثمة ما يبرر أصالتها عن الفلسفات التقليدية، بإعتبارها جاءت لتعلن عن ضرورة تخطيها، لكونها كرست في مجملها الميتافيزيقا؟

يمتنع الحديث عن الفينومنولوجيا ما لم يتم إحالة خطابها على سؤال المنهج ، إذ يظهر هذا الأخير قدرتها على التمكن من تأسيس حلمها الموعود ، في أن تصير علما صارما . لكن إقامة هذا العلم لا يستقيم إلا إذا قمنا باكتشاف التعدد والاختلاف الموسومة يهما الفينومنولوجيا نفسها ، لكونهما يسهمان في تفعيل سؤالنا حول إمكانية إحداث مطابقة جوهرية بين المنهج وموضوعه ..لقد شقت الفينومنولوجيا طريقها نحو التأسيس لهذا العلم في الفترة نفسها التي توفي فيها "نيتشه" أي في سنة 1900،السنة التي ظهر فيها و لأول مرة المشروع الفينومنولوجي إلى الوجود مع إتمام "هوسرل" عمله الفاتحة : "البحوث المنطقية" العمل الذي أعلن من خلاله عن ميلاد الفينومنولوجيا باعتبارها علما كليا " "، أي الفلسفة التي تحدث تطابقا مع مضمون علمها

هنا تكمن ضرورة تحقيق نوع من التبسيط من خلال الابتعاد عن الافتراضات و الأطروحات المغرقة في التنظير ، حيث سبق و أن أشار هوسرل بأن الفينومنولوجيا "سلوكا إيجابيا".أي السلوك الذي يعلم جيدا كيف يتحدى و ينتصر على كل الأحكام المسبقة ، قصد التمكن من الرجوع إلى الظاهرة عينها ، والتي لا تدل على أنها مجرد حقيقة الشيء ، و إنما تعنى بالإضافة إلى ذلك حقيقة الشيء بما يظهر عنه . فال"فاينستاي":" تعنى الظهور في بريقه و لمعانه في مرئية الشيء .فعندما أصف أي ظاهرة فإنني لا أقوم لحظتها بوصف الشيء نفسه أي ظهوره ، وإنما ظهوره بالنسبة إلي بما هو يظهر لي . هنا تبدو صعوبة تكمن في إمكان فصل حقيقة الشيء عن ظهور الشيء ذاته ." إن الشيء يظهر لنا و عليه فهو الشيء ظاهر . و تقوم الفينومنولوجيا و عبر الرد l بوصف هده الطبقة من الظهور ، أي ليس الشيء المدرك، وإنما الوجود المدرك للشيء. فال" فينستاي" عيار الظاهرة التي تظهر في الضوء ، هكذا بالذات يظهر الشيء .لكن هذا لا يعنى أبدا القول أن الفينومنولوجيا تمنح الامتياز المطلق للرؤية ،

احتل سؤال المنهج الصدارة من حيث التناول النظري ، إذ لم يحاول هوسرل تقديمه في صياغة نسقيه ، ذلك لأن أولوية المنهج لم تكن تمثل بالنسبة إليه تقديمه لعلم سابق عن النسق . بالإضافة إلى ذلك عمل هسرل على الجعل من الفينومينولوجيا نظرية ترسندنتالية في المنهج . فلقد حافظ على المعنى الأنطولوجي لتجربة المنهج من حيث هي محايثة لتجارب الوعي في حركتها الطبيعية و على وضعه المعياري في نمو الفكر و وعيه يتناسب وإجرائية المفاهيم و مطابقتها لمعطيات حدسية بما هي أساس موضوعي للمعقولية . أن أهم صعوبة حاول هسرل إيجاد حلا لها من خلال سؤال المنهج ، تمثل تحديدا في انفصال البدء انفصالا تاما عن الموقف الطبيعي من جهة كثافته الأنطولوجية و من جهة ملازمته للموقف الفلسفي فالمفهوم الطبيعي للعالم بما هو نقطة بدء لنظرية المعرفة هو بمثابة إمكان فينومينولوجي ذلك لأن الفينومينولوجيا لا تتأسس مباشرة بما هي مذهب الفينومينولوجيا للماهية و إنما محاولة تم تحقيقها لامتحان قدرة أو إمكان أن تحقق الفينومينولوجيا قيام بتجربة لا صلة لها بمذهب الماهية لهذا كان هاجسنا هو البحث عن إمكان منهجي يمنح لنا سير نحو العلم الكلي . هاجس لم يتمكن هوسرل من تحقيقه بصورة نهائية .

وأمر تأسيس منهج فينومينولوجي قادر على أن يعيد الحلم الأفلاطوني والديكارتي والكانطي في إقامة الفلسفة باعتبارها علما صارما هو بمثابة: '' تأسيس للبشرية الأوروبية الحديثة، وبالضبط كبشرية تريد بالمقارنة مع البشرية كما كانت إلى ذلك الوقت، مع البشرية الوسيطة والقديمة، أن تتجدد جزئيا من خلال فلسفتها الجديدة.

إن سؤال المنهج يعكس مثل هذه الحقيقة الأنطو-إيتيقية، فهو سؤال أنطولوجي لكونه محمول بتردده، وببعدده عن الإقرار بوجود نهاية مكتملة للمنهج، لذا نجد أن هوسرل كان دائما منفتحا على المنهج من موقع التعدد لتيقنه بتعذر إيجاد منهجا واحدا داخل الفينومينولوجيا لحظة التوجه إلى الظواهر، بالإضافة إلى ذلك أن طبيعة الفينومينولوجيا الباحثة عن الأرض الموعودة لا يمكنها أبدا الرضا بمنهج محدد الملامح ولأنها كذلك فانه بإمكاننا التأكد بما يلي: أن الفينومينولوجيا ستعرف نهايتها المرتبطة بدوغمائيتها لحظة اعتقادها بأن ما تصل إليه من خلال ما تتبناه من منهج قد يمثل الحقيقة النهائية، وقد طرح سؤال المنهج نفسه كبديل عن الميتافيزيقا التقليدية التي رأت من المتعذر بلوغ الترسندنتالي في كليته، لأنه تمة ما هو قبلي لا يمكن البتة أن تخضعه للبحث المنهجي.

في نص **1930** المستعمل كمدخل إلى الطبعة الإنجليزية لعمله: "الأفكار المسددة لأجل الفينومينولوجيا وللفلسفة الفينومينولوجية المحضة" غير هوسرل يحدد الفينومينولوجيا باعتبارها: علم البدء الجديد. أي بمثابة الإستعادة للفكر الأصلية للفلسفة، التي تحدث عنها أفلاطون والتي تأخذ دلالة العلم الصارم**.** مثلما يؤشر على ذلك عنوان مقالته الشهيرة، والمنشورة ب مجلة "لوغوس" سنة **1911**:"الفلسفة بإعتبارها علمًا صارمًا. ومن هذا المنطلق تحديدًا سيحصل أن تتميز الفلسفة عن العلم الوضعي ذلك لأنها ستتموضع مثلما يشير إلى ذلك هوسرل في عمله: فكرة الفينومينولوجيا" الصادر سنة **1907**: ضمن بعد جديد كلية، ومنهج جديد كل الجدة، القادر على أن يميزها مبدئيًا عن العلم الطبيعي.

فالمنهج داخل العلوم الوضعية هو أساسًا منهج الفحص والتمحيص يسعى جاهدًا إلى إثبات الفرضيات، وذلك من خلال التفاته إلى المعطى. إلى الظاهرة أي إلى ذلك الذي تعتبره كل العلوم الوضعية بأنه يعطى بصورة سابقة، بصورة جاهزة كموضوعها للبحث وللدراسة. ولأجل تحققه ينبغي عليها إقامة الفرضيات الضرورية. في حين الفلسفة، وعلى خلاف ذلك تمامًا، لا يمكنها افتراض شيء. ولا يمكنها الاعتماد على معنى مقدم سلفًا. هذا ما أقره هوسرل في عمله:"الأفكار المسددة ".: الفلسفة هي علم الأساس الأخير. فهي التبرير الأخير لذاتها. وليس ثمة بداهة بإمكانها الجعل منها قاعدة للمعرفة. وعليه لا يمكن لمنهج الفلسفة أن يحدث تقاربًا مع المنهج الخاص بالعلوم الطبيعية، ولا حتى بمنهج البرهنة الخاص بعلوم الرياضة. ذلك لأن الرياضيات الأكثر صرامة. والعلم الرياضي للطبيعة، ليس لديهما أي تفوق، أو إستعلاء بالنسبة إلى المعرفة. سواءًا كانت واقعة، أو تفترضها من التجربة المشتركة. فالأمر يتعلق لدى هوسرل بأن يتم النظر إلى الفلسفة بإعتبارها علمًا جاعلاً من العلوم المؤسسة سلفًا نموذجه (بالمعنى الذي تأخذه الثورة الكوبرنيكية داخل المشروع الكانطي، والثورة الغاليلية داخل المشروع الديكارتي...)، وإنما بالأحرى فهم بأن الفلسفة تقيم فكرة العلم بواسطة الفلسفة ذاتها. إنها العلم بإمتياز، وعليه فإننا نجدها تفرض، وتلزم بإقامة منهج جديد مستحدث، الذي تتمكن من أن تمنح بواسطته ميدانها الخاص. ومقدماتها الحقيقية**.**

باختصار يمكننا الإشارة إلى المسارات الأساسية التي يعرفها المنهج الفينومينولوجي، بإعتباره إجراء، وموقف في آن معًا: فهو يبدء يوصف التجلي المباشر للعالم. وصف لا يحمل دلالة إلا عندما يغدو وصف العالم وصفا لتجربة الأنا المنجزة من قبل الأنا نفسه. أي أنه وصف أمبيري ذاتي **auto** **description empirique**. فهو ينجز وصف للموقف الطبيعي وصفًا ذاتيًا لمايظهر ويتجلى. وعليه ينجز الأنا انعطافٌا على ذاته. لكن لا يكفي من هذا المنطلق أن يكون الوصف متحررًا من الفرضيات. وإنما وعلى خلاف ذلك يلزمها بنقد المعرفة، طبعًا لا يتعلق الأمر بتفسير الظواهر، وإنما بفهم مجموع العلاقات، الإجراءات، والبنيات المتواجدة في صلب فعل المعرفة، حيث تتمكن هذه الأخيرة بالقيام بإختبار أو امتحان صلاحتها. وسيكون هذا التفسير المنجز على معيشات المعرفة هو نفسه قائما يداخل بنيات ماهيتها. وعليه فإن سوف لن تكون المعيشات مدركة من وجهة نظر سيكولوجية في علاقتها بنا. إن نقد المعرفة لا يمكن أن يحصل من دون فرضيات قائمة. فالأمر مرتبط بفهم كيفيات التجلي، وليس بالتجلي نفسه. وسيعرف الرد الفينومينولوجي **Réduction** **phénoménologie** بدءه باعتباره اللحظة الثالثة عندما يقوم بتعليق كل إعتقاد. بوجود فعلي للأشياء وللأنا، وكأنها مدركة باعتبارها إشكالات ترنسندنتالية. وإذا كان الرد يمنح لنا المعيشات وكأنها قد تخلت عن معناها الحقيقي. فإن السؤال المطروح سيكون من الآن فصاعدًا، مرتبطًا تحديدًا بمعرفة كما نحن بصدد البحث عن معرفته فيها. يمكن إذًا مجهود هوسرل في السعي لا يضاح ما يلي: إن المعرفة السيكولوجية العادية هي من عمل حقل مفاهيمي، وما هوي، وأنه بفضل امتلاكنا لحدس الماهيات سوف تحدد بدورها القصد الجديد للبحث

تنفتح الفينومينولوجيا إذًا على مفهوم الظاهرة في تعدد دلالاته، و تقوم بهذا العمل ليس من موضع العلوم الكيفية التي تفهم من خلالها الظاهرة، الفهم القائم على الموقف الطبيعي، وإنما تتعامل مع الظاهرة بشكل مختلف، أي من موقع الموقف الفينومينولوجي، يبدو إذًا المبدأ واحد، والكيفية مختلفة في فهم الفينومينولوجيا للظاهرة. لكن فيم يمكن الإختلاف الأساسي للموقف الفينومينولوجي، عن الموقف الخاص بالموقف الطبيعي (العلمي)؟ ما هو التعديل الذي قد يطال الظاهرة في استعمالها العلمي، عن ذلك الذي قد يتم تلقيه للمعنى الخاص بالفينومينولوجيا وعلى الخصوص ما هي طبيعة الرابط بين الذاتية، والظاهراتية **phénoménalité**- وكأن المعنى الثاني متغير وفق وظيفة المواقف المتخذة من طرف الأول؟ فإذا كانت الظواهر متعددة. فإن الظاهراتية واحدة لقد عملت الفينومينولوجيا على إزاحة الموقف العلمي (الطبيعي) من خلال المثال الخاص: بالسيكولوجيا **psychologie** : إن السيكولوجيا هي العلم الإختباري الذي يتناول الوقائع أو الأحداث الفعلية (الواقعية). وأن هذه الظواهر التي نقوم بدراستها تتواجد في العالم المكانو-زماني. والمحكوم بالسببية. وعليه تنطلق السيكولوجيا من افتراض وجود فعلي للعالم، الإفتراض الذي تعود إليه كل شمولية الظواهر. أي أن العالم هو مجموع الظواهر التي يتعامل وفقها العالم، وفق منهج إختباري معين. شأنها شأن كل العلوم.

لقد انتهت الفينومينولوجيا الترسندنتالية و هذا ما يؤكد عليه مصنف 1913 الذي يعتبر بمثابة بيان للمنهج داخل الفينومينولوجيا:" إلى موقف أساسي يكمن في الجمع بين نظرية الماهية ، والرؤية الطبيعية للعالم" إلا أن هوسرل ستعترضه بعض المشكلات الأساسية أهمها : عدم وجود إحداثية ثابتة للمنهج . و هذه الصعوبة صادرة أصلا عن صعوبة البدء في الفلسفة من حيث هي معرفة غير طبيعية ، إذ لا يمكن الحديث عن تأسيس نهائي للمنهج داخل المنظومة الفينومينولوجية .إلا إذا تم تحديد و الحسم في فكرة بدء الفلسفة ، لهذا ارتبطت أسئلتنا بالكشف عن حقيقة العلاقة الموجودة بينهما ، أي بالكيفية التي من خلالها يرتبط سؤال المنهج باعتباره من أبرز المشكلات الأساسية للفينومينولوجيا ب" بدء الفلسفة " . طبعا الصعوبة هنا خاصة بالفلسفة لا غير .ذلك لأن المنهج في العلوم هو نتاج محصلة تعود و تراكم نتيجة التجربة التلقائية " إن الاعتبارات المنهجية في الفينومينولوجيا الترسندنتالية تفضي إلى صعوبة الناجمة عن مسألة المنهج في فلسفة عموما ، من حيث هي معرفة يتعين عليها استكشاف حقول النظر الخاصة بها ، وتجهزها مفاهيميا. أي التشريع لموضوعاتها تشريعا أصليا و أساسيا" .فالفلسفة بحاجة إلى مقالة في المنهج وقواعده . إن فينومينولوجيا هوسرل بما أنها تريد أن تكون منظومة تأسيسية و أساسية للفكر تجد نفسها مخترقة من قبل جملة من التفاوتات ، ليس من السهل ضبطها مادامت تتخلل إيقاع الفكر نفسه ،بين إقباله اللامتناهي على التجربة بشغف أصيل ، و تعلقه الحميمي بالأصول و بالمنابع ، و بين حاجته لميتافيزيقا تقيم التنسيق و الانتظام .

فالفينومنيولوجيا هي ابتداء لميتافيزيقا محضة تخلصت من كل الرواسب الفكرية السالفة ، التي أضرت بالفلسفة ، إنه السير الدءوب نحو التأسيس لميتافيزيقا كعلم محض :" فكانط على سبيل المثال لم يتمكن من تحقيق ، هذا الحلم لكونه بقي يلازم أرضية العلوم التجريبية و العقلية ." يتبين لنا أن مفهوم المنهج ينمو بصورة محايثة مع مضمون العلم. بتعيين الفينمينولوجيا علما بالظواهر لا يقصد هنا من المعنى الظاهرة ما هو مألوف ، و متداول الاستعمال في المعارف الموجودة ، لذا فالعلم الفلسفي بالظاهرة غير علم النفس هنا يبرز هوسرل فصلا جذريا بين الفينمنولوجيا ، والسيكولوجيا ، فصل بمثابة المبرر الأول الذي يؤكد عليه هوسرل في عمله ال"أفكار الأساسية" حيث نجده يدحض الآراء التي تحاول إلحاق فينومينولوجيا البحوث المنطقية بالسكولوجية التجريبية باعتبارها تختص بالوصف المحايث للمعيش النفسي . أي بالتجربة الجوانبه ، من حيث أن علم النفس هو علم صادر عن التجربة ، و مضمونه الوقائع النفسية . لن تكون الظواهر السيكولوجية إلا وقائع فعلية محايثة للوجود الحقيقي لذوات واقعية وفعلية هي أخرى . تنتمي كلها إلى عالم من حيث هو جملة الوقائع الموجودة ، و من هذا المنطلق بإمكاننا القول على أن المنهج يتعين محتواه النظري تعيينا مزدوجا :

01يقوم بتحويل العلم من الوقائع إلى الماهيات ، و بتوجيه الفكر جهة العمومية الماهوية ، و ذاك هو معنى القرار المنهجي الأساسي .

02النظر إلى الظواهر في الفينومينولوجيا الترسندنتالية على أنها غير واقعية من حيث نوع وجودها ." إن فينومينولوجيتنا يقول هوسرل :" لا ينبغي أن تكون نظرية الماهوية لظواهر العالم الواقعية ، يمسها الرد الفينومينولوجي.". يمكننا التأكيد إذا أن المنهج في الفينومنولوجيا يرجع تحديدا إلى ممارستين متميزتين حيث يكون فيه الوصف معينا منذ الوهلة الأولى ، فمن جهة تعتبر الفينومينولوجيا العلم الماهوي. الذي يضم شأنه شأن غيره كل علم ماهوي بواسطة الرد الماهوي."و هي من جهة أخرى العلم الماهوي للوعي المحض تسعى من هذا المنطق إلى إقامة الرد الفينومينولوجي ، الرد المضاعف الذي يؤدي بالضرورة إلى نوع من التعديل لتجربة الأصلية التي نحملها يوميا عن ا لعالم ، و عن دواتنا ، و أيضا كارتداد جذري للموقف الطبيعي ." و لقد أكد جل الفينومينولوجيون من تلامذة هوسرل إن هدا الأخير لم يحاول وضع مخططا نهائيا لتأسيس نظرية علمية محضة ، أو إقامة مذهب فلسفي مغلق . بإمكانه مضاهاة المناهج القائمة في مختلف العلوم التجريبية ، و لربما حتى العلوم المحضة . لهذا لن يكون معنى الفينومينولوجيا إلا مؤجلا قصد بلوغ الثبات على الأرض الموعودة التي وعد بها هوسرل الإنسانية ، و المتمثلة في أرض الفينومينولوجيا الترسندنتالية ، و هذا ما يبرزه تحديدا في عمله الأزمة Krisis.

لن تكون الفينمنولوجيا في نظر هوسرل مادة من مواد العلم ، أو من مواد الفلسفة ، وإنما هي العلم عينه ، والفلسفة عينها ، إنها العلم الصارم المؤسس من قبل رؤية جديدة لمفهوم المنهج ، حيث نجده لا يحمل الدلالة الحرية التي تأخذ بها العلوم الوضعية ، و إنما يحمل معنا استعار يا ، فهو الطريق الذي حينما نشقه نبدأ في السير قدما نحو الأفق اللانهائي .